# المحاضرة الرابعة: الرحلة والرحالة الأوروبيين

**رحالة الغرب في ديار العرب:**

لا بد وأن يكون لكل مسافر أو رحالة قصص وطرائف، غرائب وعجائب عاشها في فترة الترحال، وذلك لأن اختلاف الثقافات والأصول يجعله يعايش كل لحظة تمر عليه ويمعن النظر فيها، لأن كل ما يراه يكاد يكون جديدا عليه، وكأنه ولد اليوم ولا يعرف أي شيء في هذه البيئة الاجتماعية أو تلك. وهذا حال من زار بلاد العرب من غير العرب، والذين حضوا باهتمام الكثير من الكتاب في نقل مغامراتهم وتفاصيل حلهم وترحالهم.

وتقطيع أوصال الدولة العثمانية التي باتت تحتضر، فتسابق الأوربيون لاقتسام الغنائم وبسط النفوذ، وتأمين الطرق التجارية البرية والبحرية في آن واحد، ولهذا السبب بدأت المصالح الغربية في المنطقة تتضارب، وبدأ الصراع سرا وعلنا، فالبيرطانيون في الهند، والفرنسيون في مصر وشمال إفريقيا. والشرق العربي يعد معبرا للجيوش والقوافل التجارية، فتدفق السياح والتجار والمبشرين وعلماء الآثار والرحالة ذوي المهام الخاصة، أخذ يجوب الديار من أدناها إلى أقصاها، يرسمون الخطط، ويمسحون المناطق، ويعقدون الصفقات التجارية، فالكولونيل شيزني مسح وادي الفرات عام 1835 ميلادي، وجاءت رحلته بمجلدين من الخرائط، حتى أن بريطانيا كانت تفكر بمد خط سكة حديد آنذاك يبدأ من البحر المتوسط ويمتد في الصحراء إلى الفرات، وعلى طول الفرات حتى يصل الخليج العربي، وذلك لنقل الإمداد للجيش البريطاني في الهند،

والعودة بالبضائع والمواد الخام عن طريق البحر، لكن هذا المشروع أوقف تنفيذه نتيجة لتوصية مجموعة من الخبراء والرحالة، منهم الليدي آن بلت نفسها.

وهناك الإمبراطورية الفرنسية بقيادة نابليون التي كانت تطمع في بلاد الشرق، ولهذا قادت الحملة إلى مصر (1798-1801م) بغية قطع الطريق على بريطانيا وهي في طريقها إلى الهند. إن هذه الحملة هي التي سلطت الأضواء على منطقة الشرق الأوسط، وبينت أهميتها من النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية، فاحتدم التنافس الدولي على المنطقة في السر والعلن.

كان هؤلاء الرحالة بكرههم للإسلام والمسلمين هم من زرعوا بذور العلمانية في المنطقة العربية، وشجعوا الدعوات القومية، ومولوا الحركات الانفصالية، وأثاروا الفتن الطائفية. وكلما وقفوا عند أطلال المدن الأثرية، تباكوا على الحضارة الإسلامية والحضارة القديمة، وقالوا إن هذه المدن كانت تعج بالناس المبدعين، ولما آلت إلى المسلمين تخربت بسبب سوء الإدارة والفساد، لكن في النهاية كانت الأهداف كلها تظليلية استعمارية واستغلالية.

وسجل الترحال الغربي مليء بالأسماء الهامة والشخصيات المعروفة، فمن أقدمهم الرحالة الإسباني بنيامين التطيلي الذي ارتحل من سرقسطة عام 1165م الذي زار أوربا وسوريا وفلسطين وبلاد ما بين النهرين وبادية الشام وإيران ومصر باحثا عن اليهود في العالم، ولما عاد إلى إسبانيا كتب أخبار رحلته قبل أو يتوفى عام 1173م. ونجد أيضا الرحالة ماركوبولو

(1253–1323م) الذي سافر مع عمه التاجر من البندقية إلى بلاد الشرق، وعاد إلى إيطاليا ومعه الكثير من المعلومات عن بلاد الشرق وعادات العرب.

البولوني فارتيما الذي ارتحل في ديار العرب في القرن السادس عشر ميلادي وكتب عن مناسك الحج والعمرة في مكة والمدينة. والفرنسي دارفيو (1635–1702م) الذي زار المغرب وبلاد الشام وتركيا وترك مجلدات من المذكرات عرفت بمذكرات الفارس دارفيو.

والإنجليزي إدوار بين (1801–1876م) الذي عرف في مصر بمنصور الأفندي، كتب عن أخلاق المصريين وعاداتهم. والكابتن الإنجليزي بورتن (1861–1890م) الملقب بالفهد، الشرقي الملامح العربي القسمات، الذي دخل الديار المقدسة بزي مسلم هندي.

**صفات الرحالة الغربي:**

لم يكن الرحالة في يوم من الأيام رجلا عاديا، بل هو مواطن فذ على درجة كبيرة من العلم والثقافة، وعليه أن يواجه الكثير من التحديات، كأن يتعلم لغة البلد الذي يريد الترحال إليه، واللهجات المحلية، وهو صاحب ديانة مغايرة، فعليه أن يتعلم الشعائر الإسلامية، والإلمام بالآراء والمذاهب الإسلامية، والأنساب العربية، وأن يكون مسلما عربيا في سلوكه وعاداته، وأن يرتدي الزي العربي كواحد من أبناء البلد الأصليين. نجحوا في وصف الكثير من معالم الديار العربية وآثارها، وعرفوا المجهول من أخبارها. قطعوا صحاريها، واخترقوا قفارها، وتوغلوا في مجاهيلها مدفوعين بدوافع متنوعة، وقد استهانوا بالصعاب فذللوها، وتحملوا شظف العيش وقسوة الصحراء، وصنعوا جزءا من التاريخ بمساهمات فكرية كان لها الأثر البالغ في تغير

مجرى الأحداث بين الدول. فأولئك "المستكشفين" وثقوا لنا معطيات ما كنا لنتوفر عليها في مجتمعاتنا التي اعتمدت على "التمرير الشفاهي" في تلك الآونة.